



جمال الدين الأفغاني؛ آراؤه، كفاحه،  
وأثره في نهضة الشرق  
قدري طوقان



جمال الدين الأفغاني  
آراؤه؛ كفاحه؛ وأثره في نهضة  
الشرق

تأليف: قدري طوقان

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٧  
عن مطبعة بيت المقدس - القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: قدري طوقان

اسم الكتاب: جمال الدين الأفغاني: آراؤه؛ كفاحه؛ وأثره في نهضة الشرق  
الطبعة الأولى: ١٩٤٧ عن مطبعة بيت المقدس - القدس

---

الإشراف العام: عبد السلام عطاري

مراجعة وتدقيق: حنين خالد عناية

الصف والتنضيد: شادية الخطيب

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

[www.moc.pna.ps](http://www.moc.pna.ps)

# جمال الدين الأفغاني

آراؤه؛ كفاحه؛ وأثره في نهضة الشرق



## تقديم

سيادة الرئيس محمود عباس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل ارض معطاءة  
وكان ابناءؤها وبناتها يبغونها في الشعر والقصة والرواية  
والمرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفن  
والفلسفة . انه هذه الكوكبية من الكتب التي نعيد اصداؤها  
تقدم باقية من هذه الابداعات التي تكلف عنها عظمة لغة  
السبع وحبته للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالطابع والمكتبات والصحف والمجلات  
والساح ودور السينما والرائد للثقافية والدراسات والاعمال  
ولم تنت منارة يهتدي بها للضرورة ، ويفدونه اليها طبعاً  
للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .  
نعتز بمجودتنا للثقافي الذي ابدهه اجدادنا ، وزيره  
مخافط عليه ، وزيره للجيل القادوة انه تقراه وتقرء  
به وتبع كما ابده استاذهم .

ع  
٢٠١٣/٤/٤٤



## هذه المحاضرة

•••

ألقيتها في النادي الرياضي الأدبي بنابلس وفي القدس وغزة واللد، إحياء  
لذكرى المصلح الاجتماعي الخطير السيد جمال الدين الأفغاني بمناسبة  
مرور خمسين عامًا على وفاته.

وقد رأيت أن أطبعها وأنشرها ليكون للقراء من سيرة (جمال الدين)  
ما يلهمهم العمل في سبيل المجموع وتقدمه، ومن رسالته ما يحفزهم  
إلى التماس طريقه في النضال والكفاح؟

نابلس ٢٠/٤/١٩٤٧

قدري حافظ طوقان



## السيد جمال الدين الأفغاني

آراؤه؛ كفاحه؛ وأثره في يقظة الشرق



الأفغاني من زعماء الإصلاح في القرن التاسع عشر للميلاد ومن أركان النهضة الذين كان لهم الفضل الكبير في إيجاد الوعي السائد الآن في مختلف ديار الشرق والإسلام. كان في جهاده يرمي إلى إيقاظ الشرق عن طريق العلم والثقافة وتنقية العقائد من الخرافات وإلى مناهضة الاحتلال والاستعمار ورفع كابوسهما عن الأقطار المنكوبة بهما، كما كان يهدف من كفاحه إلى اتحاد هذه الأقطار في اتقاء الأخطار المحدقة بها لتستطيع السير مع قافلة الشعوب الراقية والمساهمة في خدمة الإنسانية ورفع مستوى الحضارة. وليس موضوعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة ونشأته بالتفصيل فهذا ما لا نحاوله. لكننا سنتناول بعض آرائه وأفكاره ونعرضها مع الشرح والتعليق، ومن خلال هذه تتجلى رسالته في الحياة وكفاحه في أدائها

على أفعل وجه وأكمل صورة.

وقبل التعرض لأرائه وأفكاره ورسائله لا بد لنا من سرد ترجمة حياته بإيجاز متناه للوقوف على البيئة التي نشأ بها وللتعرف على المحيط الذي خرج منه.

نشأ في الأفغان في بيت عظيم كان لبعض رجاله سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية تستقل فيها وتحكمها. وقد سلب أحد ملوك الأفغان الإمارة من هذا البيت ونقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى كابل.

وفي كابل درس الأفغاني العلوم الأولية. وفي سن الثامنة عشرة سافر إلى الهند فأقام سنة وبضعة أشهر درس خلالها الرياضيات والطبيعات والتصوف والفلك والفلسفة. بعد ذلك ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وطالت مدة سفره إذ أنتقل أثناء ذلك إلى مختلف البلاد والأقطار.

رجع الأفغاني بعد أداء الفريضة إلى الأفغان ودخل في سلك الحكومة وانغمس في منازعات سياسية على من

يتولى الإمارة وآثر جانباً على جانب فانتصر في بعض المنازعات وهزم في غيرها. وأخيراً أنتصر الجانب المعادي لجمال الدين فخاف الغدر والانتقام فرحل إلى الهند حيث مكث ثلاثة أشهر بث خلالها الكثير من الآراء الحرة والأفكار الجريئة. وقد أنزعج الإنكليز من هذا كله فأوعزوا إليه بالارتحال فذهب إلى الآستانة. ولكن إقامته فيها لم تطب للمسؤولين فاضطروه إلى الجلاء عنها فجاء مصر وكان ذلك عام ١٨٧١. وهنا نظر الأفغاني إلى الحال الذي عليه مصر فرأى أن المجال واسع وأن الأرض صالحة لبذر البذور.

مكث في مصر ثماني سنوات كانت أخصب أيامه وأنفعها ثمراً وأصلحها غرساً. وأخيراً وفي عام ١٨٧٩ صدر أمر بإخراج السيد الأفغاني ففارقها إلى الهند وفيها كتب رسالته في إبطال ونفي مذهب الدهريين. وابيح له بعد ذلك أن يذهب إلى أي بلد يشاء فأختار الذهاب إلى أوروبا فزار لندن وباريس حيث وافاه الشيخ محمد عبده وتعاونوا على إصدار جريدة تدعو إلى الوحدة

الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى. وقد جرى له أثناء إقامته في فرنسا مباحثات مع الفيلسوف الفرنسي «رينان» وسيأتي الحديث عنه.

وشعر شاه إيران بحاجته إلى جمال الدين فاستقدمه فسار إلى طهران وكان موضع الحفاوة والرعاية. لكن ذلك لم يطل إذ تنكر له الشاه وتغيرت سيرته معه فاستأذنه في السفر فسافر إلى روسيا وزار عواصمها. وبقي فيها موضع الإجلال والاحترام مدة من الزمن لكن جرأة جمال الدين وصراحته دفعت القيصر إلى إخراجها من روسيا، وكان الإخراج بلطف بالغ.

خرج من روسيا وجال في أوروبا فاجتمع في لندن وباريس على عظماء الرجال، وكبار الساسة، والعلماء، والفلاسفة. وصدف أن اجتمع ثانية في فرنسا بشاه إيران الذي اعتذر للسيد عما بدر منه في إيران في الزيارة الأولى ودعاه لمرافقته فأجاب جمال الدين وذهب إلى العجم. وفي هذه الأثناء سن القانون

الأساسي لمملكة فارس (بناء على طلب الشاه) على  
أساس تشكيل حكومة

دستورية مقيدة. ومن الطبيعي أن يرفض الشاه هذا  
الدستور وقد خشي على نفوذه من جمال الدين فنفر  
منه وأمر بإخراجه من الأراضي الإيرانية بالقوة  
فخرج منها إلى العراق فإنگلترا.

وفي أواخر عام ١٨٩٢ رحل إلى الأستانة بطلب من  
السلطان عبد الحميد. وهنا طالت مدة إقامته فيها  
صرفها في الوعظ والإرشاد ونشر التعاليم الحرة  
والآراء الجريئة. وفي عام ١٨٩٧ أصابه السرطان  
فقضى عليه. رحمه الله.

يظهر لنا من هذه الترجمة الموجزة أن جمال الدين  
نشأ في بيئة حافلة بالثقل والمصاعب وأنه أنغمس في  
حياة مضطربة مليئة بالاضطهاد والمتاعب. وقد كان  
لهذا كله ولسياحاته ودراساته الأوضاع والأحوال  
أثر كبير على اتجاهاته فكسب من ذلك دراية وخبرة

ومعرفة أيدها إشراق في قريحته وذكاء في مداركه  
وقوة في فطرته وشخصيته.

وأرى إخلاصاً للحق أن أشير إلى ناحية هامة تتعلق  
بآرائه وتعاليمه. قد لا تجدون في بعض آرائه شيئاً  
جديداً وقد ترون تعاليمه وأفكاره عن دول الغرب  
وعن الاستعمار شيئاً معروفاً عندكم ليس فيه ما يثير  
الدهشة. ولكن إذا نظرتم إلى الظروف التي نشأ فيها  
الأفغاني وروح العصر الذي ظهر فيه وإلى الأوضاع  
الشاذة في سائر الممالك في الشرق من جهل يكاد يكون  
شاملاً واضطهاد للحرية وخنق للأفكار، إذا نظرتم إلى  
هذا كله بعين الاعتبار واستعرضتم مواقفه الجريئة  
وصراحته المتناهية مع ذوي النفوذ ورجال السياسة في  
أوروبا وأصحاب الجبروت والطغيان في الشرق لوجدتم  
أن الأفغاني شجاع، مصلح جريء، ذو عقلية سابقة  
لزمانها، أدرك رسالته نحو الشرق والإنسانية جمعاء  
فقام يعمل على التمهيد لتحقيقها بمواهبه وعقله  
وقلبه.

الأفكار عند الأفغاني تتوالد وتتكاثر من كل ما يقع تحت سمعه وبصره «له سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له» وهو كتلة من النشاط والحيوية وشعلة من الذكاء والحماسة لا يهدأ ولا يكل.

يريد أن يؤدي رسالة ويريد تحرير شعوب الشرق والإسلام واتحدها. وكيف الطريق لأداء الرسالة؟ انها التعليم في كل مكان ينزله. فقد كان يقوم بالتعليم في بيته وفي بيوت أصدقائه وفي القهاوي وسائر المجتمعات على أنواعها من شعبية وأرستقراطية.

جاء مصر وأقام فيها بعض السنين ولعلها من أبرك السنين على مصر وعلى الشرق. فقد بدأ نشاطه في التعليم، وعن هذا الطريق بذر البذور فنمت وأثمرت ثمرات هي من عوامل يقظة الشرق واندفاعه في التحرر والانطلاق. كان يلقي في بيته دروساً علمية منتظمة في المنطق والفلسفة والتصوف. وكان يمتاز على علماء الأزهر ومعلميه في كونه توفيق في عرض

هذه الموضوعات وجعل فصولها وبحوثها نقاط ارتكاز  
«يستند عليها في شرح أفكاره وآرائه والتبسط في  
مناحي الفكر والتطبيق على الحياة الواقعة». لهذا لا  
عجب إذا تأثر بها كبار رجال الإصلاح ونخبة الشباب  
في ذلك الوقت أمثال محمد عبده، عبد الكريم سلمان،  
اللقاني، سعد زغلول، والهللأوي وغيرهم.

لقد وجد هؤلاء عند جمال الدين شيئاً جديداً غير  
الذي ألفوه في الأزهر. وجدوا أن جمال الدين ذو  
شخصية قوية، تجزم في الحكم ولا تتردد، تحكم في  
صحة ما يصح وبطلان ما يبطل، «تربط جزئيات الحياة  
العملية والعلمية كلها برباط واحد يفتح النوافذ كلها  
بعضها على بعضها حتى تتألف منها وحدة». ولم يكن  
الأفغاني يكتفي بالتعليم في بيته، بل لجأ بالإضافة  
(إلى التعليم في البيت) إلى إلقاء الدروس في حلقات  
أوسع ومجتمعات أكبر تكون أعم أثراً وأكثر نفعاً.  
كان من رواد حلقاته هذه البارودي والمويلحي وأخوه  
ومحمد عبده واللقاني وسعد زغلول وعلي مظهر وأديب

اسحاق وسليم نقاش وغيرهم من الشباب من مختلف الطبقات والأعمال. في هذه الحلقات والمجتمعات كان التوجيه قوياً في تحويل مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال حتى أصبح وسيلة للتعبير عن إحساس الجماهير والدفاع عن حقوقهم. يريد الأفغاني من تدريسه في هذه الحلقات أن يكون رأياً عاماً ذا أثر قوي على الحكومة والمسؤولين.

يريد الأفغاني من دروسه هذه أن يقتنع الشعب بحقه في الحكم وأن ينتزع هذا الحق انتزاعاً من الحاكمين المغتصبين. إن هذه الطرق التي أتبعها الأفغاني في التعليم، في البيت وفي الحلقات والمجتمعات، قد ساعدت على توسيع العقول وإيجاد آفاق جديدة في فهم العلم وحقيقته وتقديس الحرية في البحث وعلى خلق شخصيات قوية تخلص للحق ولا تخاف الجهر، كما كانت عاملاً في يقظة الجماهير وتقوية إيمانهم بحقهم في الحياة وتبصيرها بكيانها وحيويتها وواجباتها.

كان الأفغاني شجاعاً إلى أبعد الحدود، لا يهاب أحداً،

يجهر بما يعتقد ويدعو إلى ما يرى فيه الخيراً لا يُرهبه حاكم أو سلطان. وكانت شجاعته هذه نقمة عليه إذ اضطرتّه (كما ظهر لنا) لترك بلاده ومبارحة الهند والابتعاد عن مصر وغيرها من الأقطار. وليس بعجيب أن يكون هذا مصيره فهو يرى أن السجن في طلب الحق من الظالمين والعتاة رياضة، والنفي في ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة، وهي أسمى المراتب.

كان للأفغاني في أول حياته آمال كبار وأهداف بعيدة تتجه نحو خير البشرية وسلام العالم. وكان يرى أن البلاء المنصب على البلاد والتفرقة المستحكمة في سائر الامصار ليست إلا أثراً من آثار بعض رجال الدين ونتيجة لسوء توجيههم وتصرفاتهم ونواياهم. لقد رأى بعين البصيرة النافذة أن الأرض التي يعيش عليها الإنسان - وهي من أصغر الأجرام وهباءة في هذا الكون الواسع العريض - لا توجب هذا التناحر وهذا الاختلاف بين الناس. وأن أصحاب المطامع والأهواء وذوي النفوذ هم من عوامل الانقسام والفضوى

السائدين في مختلف الأقطار والديار. ثم يوضح آراءه ويسترسل فيقول: «ورجعت إلى أهل الأرض وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين.. فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثًا دقيقًا مجردًا عن كل تقليد منصرفًا عن كل تقييد مطلقًا للعقل سراحه» وقد وجد الأفغاني بعد البحث وإمعان الفكر أن الأديان الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وأنه «إذا نقص في الواحد شيء من أوامر الخير المطلق استكملاه الثاني - وإذا تقادم العهد على الخلق وتمادوا في الطغيان وساءت الكهَّان فهم الناموس أو انقصوا من جوهره أتاهم رسول فأكمل لهم ما أنقصوه وأتم بذاته ما أهملوه...» وهنا لاح له بارق أمل كبير وهو أن يتحد أهل الأديان مثل ما أتحدت (الأديان) في جوهرها وأصلها وغايتها. وبهذا الاتحاد (على حد قوله) يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوات كبيرة في هذه الحياة القصيرة، ويقول بعد ذلك «... وأخذت أضغ لنظريتي هذه خططًا وأخط أسطرًا وأحبر رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب ولا تعمقت

في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد وتفرقهم  
فرقاً وشيعاً وطوائف....» لكنه لما علم أن دون اتحاد  
أهل الأديان هوات عميقة وصعباً ليس من السهل  
التغلب عليها... عندئذ أدرك (كما يقول) أن أي رجل  
يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف وإنارة  
أفكار الخلق بلزوم الائتلاف والرجوع إلى أصول الدين  
الحقة، هو ذلك الرجل قاطع أرزاق المتجرين في الدين،  
وهو الكافر الجاحد في عرف الضالين والمسيطرين على  
مصائر الشعوب.

انتهى علم الأفغاني إلى هذا الحد وتوصل بإدراكه  
إلى هذه النهاية. وهنا يقول: «... إنقلبت أفراحي  
بالخيال أتراحاً ورجعت عن نظريتي والفضل ملء  
إهابي وجبتي..» والأفغاني لا يقف. وكيف يقف وهو  
المتقد حماسة وحيوية، فلقد جمع ما تفرق من الفكر  
ونظر إلى الشرق وأهله وفكر في تشخيص الداء وتحري  
الدواء، فوجه همه إلى ذلك وإلى الإصلاح على قدر  
الإمكان.

ولهذا لا عجب إذا رأيناه ينظر من الانقسام بين الشيعة والسنية. وفي رأيه أن هذه التفرقة لا موجب لها بل هي من صنع أصحاب الأهواء والمطامع والملوك والأمراء. وهو لم ينكر أيضاً أن هناك عامل الجهل الذي كان له (ولا يزال) الأثر الكبير فيما نراه من التحزب لصحابي أو ولي مما أدى إلى نزاع بليغ زاد في تفكيك المسلمين وانحلال الروابط بينهم.

ولسنا بحاجة إلى القول إن الأفغاني - وهذه روحه وآماله البعيدة - لا يعرف تعصباً، وهو إن رأيناه يدعو إلى الدين وإلى الالتجاء إلى الدين في كثير من الأحيان فما ذلك إلا لأنه يرى فيه قوة عظيمة يمكن استغلالها لإثارة الجماهير وإيقاد حماسهم ليرفعوا عنهم ضغط الاستعمار ويتخلصوا من السيطرة الغربية.

الأفغاني يؤمن بالحق ويخلص له. وقد أثر هذا على سلوكه وتصرفاته، فبينما هو متواضع مع الناس لدرجة الذل إذا هو متكبر مع الملوك والأمراء لدرجة التجبر. كان يندفع في الحق والجهر به أمام من لا يلائمهم

ذلك من ذوي النضوذ والسلطان. وكثيراً ما أوقعه هذا السلوك في مشاكل وصعاب ما كان ليعيرها اهتماماً أو الالتفاتاً .

ذهب الأفغاني إلى روسيا بقصد التعرف على شؤون المسلمين فيها ودراسة أحوالهم - وكان معروفاً بعدائه لسياسة إنكلترا - فأولاه المسؤولون في روسيا الإجلال واستقبلوه

بالترحاب والتكريم. دعاء القيصر القصره وتحادث معه طويلاً، وقد سأله (القيصر) عن سبب اختلافه مع شاه العجم. فذكر جمال الدين رأيه في الحكم الدستوري وضرورة إتباعه وأن الشاه ينفر من ذلك. وهنا قال القيصر: «إنني أرى الحق في جانب الشاه، إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكم به فلا حو مملكته». فأجاب جمال الدين بجرأة وصراحة: «أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له خيراً من أن يكونوا أعداء يتربقبون الفرص ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران

الكراهية ...» فعَلتْ عند ذلك وجه القيصر علامة غضب فقطب حاجبيه ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين بل قام من مجلسه وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ثم أوعز القيصر لرجاله أن يسرعوا متلطفين بإخراجه من روسيا.

كان الأفغاني قوي الحجة نافذ البصيرة يجذب مخاطبه إليه ويرضخه لبرهانه، وقد قال عنه محمد باشا المخزومي وهو من الذين لازموه وعرفوا الكثير عن سجاياه وصفاته: «الأفغاني عظيم النفس كبير الهمة محب الخير للبشر، يحمل كل من يخاطبه على العظائم ويدلل لديه المصاعب. وهو صحيح العقيدة شديد التمسك بحكمة الدين ينفر من التقليد في المذاهب. وكان مجتهداً وله في اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المألوف من وجهة التفسير. يقدم حيث يحجم الناس ويتكلم حيث يسكتون رغبة أو رهبة.»

يقول الأفغاني أن لا موجب لسد باب الاجتهاد وأنه إذا كان المتقدمون قد سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا قول

من تقدم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم، فلم نقض،  
ولم لا نسير على طريقهم نستنبط كما استنبطوا ونقول  
ما يوافق زماننا. ويتابع عرض رأيه في ذلك فيقول: «ما  
معنى أن باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سُدَّ؟ ومن  
قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي  
بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس  
على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن  
وأحكامه؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا.  
ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن.  
واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة، والفضل  
بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده...».

ويرى الأفغاني أن سد باب الاجتهاد من عوامل تأخر  
المسلمين. وأن على المسلمين من أصحاب الاطلاع الواسع  
والعقول النيرة المرنة أن يجتهدوا وأن يسايروا الزمن  
في الاجتهاد وألا يكونوا جبناء في إذاعة ما يعتقدونه  
ويرونه في صالح الجماعة أو في جانب الحق حتى ولو  
كان ذلك مخالفاً للرأي العام. وقد أعجب الأفغاني

بالدكتور شميل لجرأته وبث ما يعتقدده حين قال  
بنظرية «دارون» وكتب فيها وهو «يقدر فيه عدم تهيبه  
من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم».

ما كان الأفغاني ليحجم عن إبداء رأيه ولو كان مخالفاً  
للمألوف. وهذا ما جعل بعض معاصريه ينظرون إليه  
كمارق من الدين وخارج على أحكامه.

سئل مرة عن رأيه في الاشتراكية في زمن كان البحث  
فيها إلحاداً وخروجاً على التقاليد والعرف والأحكام  
المرعية. وكان جريئاً في جوابه لاعتقاده أنه الحق،  
وأن الحكمة تقضي ألا يمتهن الرأي أو النظام لقلّة  
الأتباع والنصرء، بل أن ينظر إليه بعين البحث والنقد  
الصحيحين. قال الأفغاني: إن الاشتراكية - وكان  
ذلك قبل سبعين عاماً - «لا بد وأن تسود في العالم  
يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الإنسان أنه وأخوه  
من طين واحد أو نسمة واحدة وأن التفاضل إنما يكون  
بالأنفع من المسعى للمجموع وليس بتاج أو نتاج أو مال  
يدخره أو كثرة خدم يستعبدها أو جيوش يحشدتها

وغير ذلك من عمل باطل ومجد زائل..»

والسيد الأفغاني لم يترك عملاً خطيراً لخير النوع وخاصة لخير الشرق إلا واقتحمه بجرأة بلغت الغاية، بل وتعدتها إلى التهور في كثير من الأحيان.

عمل بلسانه وقلمه على إيقاظ الشرق ولا سيما المسلمون لأنهم كما كان يقول هو العنصر الغالب بأكثريته في الشرق، ولهذا فيقظتهم يقظة الشرق ونهوضهم نهوضه. ولا يقوم للشرق كيان إلا إذا انتبعت الأكترية وفاقت من سباتها ونهضت من كبوتها. وهو يرى أن لا مضر لنهوض الشرق وتقدمه من القيام بحركة ثورية عامة تزيل طغيان الغرب على الشرق وتقضي على هيئته وسطوته.

كان للأفغاني رسالة يرى في ادائها عبادة هي أسمى العبادات فقام يعمل على تحقيقها بتوجيه جهوده إليها وحشد مواهبه في سبيلها. لقد جعل همه إنهاء الشرق ليستعيد مكانته ويلحق بالأمم الراقية فيساهم في خدمة المدنية ورفع مستواها. لقد دعا

الشرقيين والمسلمين إلى حل عقولهم من قيود الأوهام  
وإلى الإصلاح الديني والعلمي وإلى توحيد المساعي  
والجهود ليتمكنوا السير بخطى واسعات نحو الحرية  
وإحراز الحق في الحياة الكريمة. وفي سبيل تحقيق هذه  
الغايات والأهداف نراه قد أنقطع بكليته إلى الجهاد  
والنضال والكفاح فلم يتخذ زوجة ولم يلمس كسبًا،  
فبث في نفوس الذين اتصلوا به روحًا حية وبذر بذورًا  
في مختلف الأقطار أنتفع من إزهارها الشرق ولا يزال  
ينتفع منها ومن نموها في جهاده وكفاحه. والواقع أن ما  
نراه الآن من يقظة عند العرب إنما ترجع إلى الأفغاني  
وتلامذته من أصحاب المواهب والرسالات الذين عملوا  
على إيقاظ شعوبهم وإنهاضها. والسيد الأفغاني (كما  
يرى السيد رشيد رضا) هو موجد النهضة الاجتماعية  
في مصر من الجهتين العلمية والسياسية. وقد نفخ فيها  
روحًا من روحه «ونقلها من طور إلى طور، ولكنه تركها  
في سن الطفولية وقد خلف عليها وصيه ووارث علمه  
وحكمته الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده».

لقد درس الأفغاني الشرق درسًا وافيًا وبحث في علله وأمراضه فوجد « أن أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الإتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا. ولا تقوم على هذا لقوم قائمة». وقد عمل جمال الدين على إيقاظ الهمم وبعث العزائم وإفادت النظر إلى الخطر الغربي المحقق بالشرقيين والأخذ بخناقهم فدعاهم إلى جمع شتاتهم والاتحاد وتوحيد الجهود والجهاد. وعلى الرغم من العقبات التي كانت في طريقه والمصائب التي انتابته والمكاره التي أصابته، على الرغم من كل ذلك لم يقنط ولم يصل اليأس إلى نفسه، بل كان يواصل السعي للوصول إلى ما يصبو إليه ويرى في مواصلة السعي لذلك لذة وراحة وطمأنينة.

لم يكن جمال الدين يجزع من العسف المحيط بالشرق ولا من الضغط النازل به ولا من المظالم المنصبة عليه، بل كان يرى في هذا كله بوارق خير يرجو منها الالتحام

والإتحاد. فكان يقول «بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة». وجمال الدين فهم الشرق وخبره وأدرك أسباب تأخره وانحطاطه. وقد عرف الداء فوصف الدواء فكان أول من قال به وأشار إليه. قال الأفغاني أن أمراض الشرق قد أتت من مطامع الغرب وإنما قد دخلت إليه من باب خمول الشرقيين. وقد أوضح طرق الغرب في إضعاف الروح وقتل المواهب وأبان أسلوبه العجيب «لإضعاف لغة القوم والتدرج بقتل التعليم القومي وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي أو الفارسي أو الأوردو الهندي آداب تؤثر ولا في تاريخهم مجد يذكر...» وقد وصل الإلتقان في أساليب الغرب حدًا جعل بعض الشرقيين يرون أن المجد كل المجد لهم «أن ينضروا من سماع لغتهم وأن يتباهوا بأنهم لا يحسنون التعبير بها وأن ما تعلموه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية».

وهو يرى أن لا جامعة لقوم لا لسان لهم. ولا لسان

لقوم لا آداب لهم ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقيم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم. وهذا كله يتوقف على تعليم وطني يكون بدايته الوطن ووسطه الوطن وغايته الوطن. ويجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية، اثنان فاثان تعملان أربعة، فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصة ولا أن تحاول نقضها.

والأفغاني يرى أن الوهم من أكبر العوامل في تقهقر الشرقيين وركونهم لسيطرة الغرب فلو لا الوهم لما كان للغرب سلطان على الشرق ولما استكان الشرق لحكم الغرب. والوهم يثبط الإرادة ويميت العزائم كما يجلب الشر بأنواعه. وفي اللحظة التي يرتفع بها الوهم عن أعين الشرقيين يزول الطغيان الغربي وتتكشف الحقائق فلا يعود هنالك غرب حاكم وشرق محكوم. ويعرض بعد ذلك آراءه في الجبن فيرى أنه أساس الوهم وهو موجد، بل هو علة العلل والداء

المنتشر في الشرق. والجبن (كما يقول الأفغاني) يتنافى مع الإيمان فلا يمكن لأحد أن يجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد. والجبن من أسباب نجاح الغرب في سيطرته واستغلاله، وفشل الشرق في نيل أمانه واستقلاله. وعلى هذا نراه يدعو الشرقيين إلى الثورة وأن يؤمنوا بحقهم وأن لا يتوانوا عن بذل الأرواح والأموال في سبيل إعلاء كلمة الحق.

والأفغاني يرى أن نجاح محمد علي باشا الكبير في حكم مصر قام على الشجاعة والإيمان فقد سار بمصر في مضمار التمدن والحضارة وأدخلها في (طور من أطوار المدنية) وتقدم بالبلاد تقدمًا لم تصل إليه الأقطار الشرقية في ميادين الزراعة، والصناعة، والتجارة، والتعليم.

وليس عجيباً أن يعجب الأفغاني بمحمد علي باشا وأن يعتبره من نوابغ الدهر ومن عظماء التاريخ، فالعظيم يقدر العظيم، والفضل يعرفه ذوو الفضل. لقد آمن محمد علي باشا بحق مصر في الحياة الكريمة وآمن

برسالتها نحو الشرق والإنسانية فسار بها - بعد أن  
نزع الجبن واستأصل الوهم من نفسه - في معارج التقدم  
والخلود.

والأفغاني يؤمن بالشعب وبحق الشعب في حكم نفسه  
يؤيد ذلك رفضه عرش السودان حين عرضه عليه  
اللورد ساليسبوري إبان ثورة المهدي. فقد استدعت  
الحكومة البريطانية جمال الدين لتسأله رأيه في  
المهدي وظهوره، فشخص إلى لندن وأجتمع بالمسؤولين  
من رجال الحكم وبعد مجادلات ومناقشات.

قال اللورد ساليسبوري للأفغاني: «إن بريطانيا تعلم  
مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره ونحب أن نسير مع  
حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح لنا  
به الظروف والأحوال. لذلك تصورنا أن نرسلك إلى  
السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة  
المهدي وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه» فقال  
جمال الدين: «... تكليف غريب. وسفه في السياسة  
ما بعده سفه، اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك: هل

تملكون السودان حتى تريدون أن تبعثوا إليه بسطان؟  
مصر للمصريين والسودان جزء متمم له...» وليس  
لأنك لترا الحق في تعيين أمير أو سلطان وإنما يعود هذا  
الحق إلى صاحبه، إلى الشعب في مصر والسودان.

وقد تجلى إيمانه بحق الشعب في الحكم حين كلفه  
الشاه في إيران أن يسن القانون الأساسي لمملكة فارس  
فسن القانون على أساس مملكة دستورية وأعطى الحق  
في انتخاب الحكومة إلى الشعب.

وهنا قال الشاه لجمال الدين: «أصبح أن أكون كأحد  
أفراد الفلاحين وأنا ملك الملوك شاهنشاه...» فقال  
جمال الدين: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة  
سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري  
أعظم وأنفذ وأثبت مما هي الآن. وأن الفلاح والعامل  
في المملكة أنفع من عظمتك ومن أمرائك وأن الملك يقوم  
على هؤلاء وهم أصحاب البلاد وأسمح لإخلاصي أن  
أؤديه صريحاً قبل فوات الوقت...»

يرى الأفغاني أن صلاح الحكومة يقوم على صلاح

الشعب فلن تستقيم حكومة ولن تسير في اتجاه سليم إذا لم يكن هناك رأي عام يراقبها ويرهبها. وفي رأيه أن صلاح النفوس والعقول أساسي وجوهري لا تستقيم الأمور إلا عليه. وعندئذ تصلح الحكومة وتصبح أداة حية مثمرة منتجة فيها مزايا العمران والتقدم.

لقد نظر إلى أحوال الحكومات بعين البصيرة التي تكشف الحجب فتبين له قبل أن يتبين لغيره أن سنن التدرج ومقتضيات الفطرة ستعمل على زوال الحكم المطلق والتفرد بالسلطة، وأن عوامل الزوال تكون بالقضاء على الجهل وافشاء العلم بين سائر طبقات الأمة.

والقوة المطلقة عند الأفغاني تتنافى مع العدل. فالعدل لا يكون إلا مع القوة المقيدة المستمدة من الحكم الديمقراطي الصحيح. والقانون يجب أن يستند على إرادة الشعب الذي يملك حريته قولاً وعملاً.

نستعرض الآن رأيه في العلم الصحيح والتمدن وما

يجب أن يؤدي إليه. يرى الأفغاني أن العلم الصحيح هو العلم الذي يثمر ويأتي بنتائج في صالح الجماعة. وأن الأفراد أو الأمة أو الأشياء أو المكتسبات العلمية لا تقدر إلا بنسبة ما يترتب على ذلك من فوائد ومنافع. والمدنية أو العلم ليس في المدن الكبيرة أو الأبنية الشامخة أو المصانع بل (على رأيه) أن التمدن أو العلم الصحيح هو الذي يمكن الإنسان أن ينتهي به عن الفساد في الأرض وسفك الدماء ويصل عن طريقه إلى سلام ورخاء. وعلى هذا لا يقال لأمم الغرب أنها متمدنة وذات علم صحيح ما دامت غارقة في الدماء وساعية إلى الفساد بالاستعمار والاستغلال فهي تسير بالعلم والحضارة إلى التدهور والإفلاس.

كان الأفغاني لا يرى الاستعمار لغة واصطلاحاً، مصدرًا واشتقاقاً إلا من قبيل أسماء الأضداد، وهو أقرب إلى الخراب والتخريب وإلى الاسترقاق والاستعباد منه إلى العمار والعمران والاستعمار. والاستعمار بمعناه

ومبناه ( كما يقول ) هو تسلط دول أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جاهلة فإذا زال الضعف وزال الجهل من أمة أرتفع عنها الاستعمار وانزاح كابوسه. وزوال الضعف تعقبه القوة. وهذه القوة كامنة في الأفراد لا يظهرها إلا الإتحاد ولا يخفيها إلا التفرق. فمن رام من الأمم الخلاص ممن أذلها واستعمرها فليس هناك غير طريقين : طريق الإتحاد وهو ما يوصل إلى الغاية وينقذ من البلاء، وطريق العلم الصحيح الذي ينير السبل ويزيد في بأس الأمة ويعلي من شأنها.

نأتي الآن إلى مقام الأفغاني عند رجال التاريخ والاجتماع في أوروبا وأميركا فنجد أنه كان محل التقدير والاحترام والأعجاب. أجمع السيد الأفغاني «برينان» الفيلسوف الفرنسي الشهير وحصل بينهما جدال حول العرب والإسلام. ولسنا الآن في مجال عرض هذا الجدل وتفصيلاته، ولكن يؤخذ من أقوال رينان في رده على رد الأفغاني، أنه (أي رينان) معجب بجمال الدين، وقد وقع في نفسه وقعاً عظيماً وأثر فيه

تأثيراً قوياً حتى قال: «... وقد يخيل إلي من حرية  
فكر الأفغاني ونبالة شيمه وصراحته - وأنا أتحدث  
إليه - أنني أرى أحد معاريفي من القدماء وجهاً لوجه.  
وأنني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من العظام  
الذين ظلوا قرونًا عدة يعملون على تحرير الإنسانية  
من الإسار...»

وقد درس الكاتب الأميركي الشهير «لوثر روب  
ستودارت» تعاليم الأفغاني وأطلع على آرائه فخرج  
بالتقول « إن خلاصة تعاليم الأفغاني تنحصر في أن  
الغرب مناهض للشرق » وأن على الشرق أن يتحد لدفع  
عدوان الغرب ... وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه  
أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه ومقدرته ...  
أما جولد زيهر وبراون وغيرهما فيرون أن الأفغاني كان  
خطيباً فيلسوفاً وكاتباً صحفياً وسياسياً قديراً وأن  
أثره بالغ في الحكومات الإسلامية « وأنه كان يرمي  
إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية  
وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي كما يرمي إلى ترقية

شؤونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة...».

وجماع القول: كان الأفغاني باعث النهضة الشرقية وعنوانها، ومنشئ فكرة المقاومة وصاحبها. تجسمت فيه اليقظة حياة وحركة، وآمن برسائلته الخالدة نحو الشرق والإنسانية فسعى إليها قولاً وعملاً. وضع أساس الحركة التحريرية في الشرق ورسم منهاجها وعليها سار العرب والشرق يستمدون منه القوة والإقدام ويستلهمون العزيمة والإلهام.

لقد أنفق الأفغاني في سبيل الشرق حياة ما أعنفها وأقساها!! ونفخ في ديار الشرق من روحه ما أيقظها وقواها؛

وصب عليها من فيض حيويته ونضاله ما ألهمها طريقها ومسراها.

أحيا النفوس بعد أن كانت نائمة؛

وحرر العقول بعد أن كانت خاملة؛

وحرك القلوب بعد أن كانت جامدة.

فهو الآن فكرة باقية، وهو الآن معنى خالد. فكرة  
الثورة والنضال، ومعنى التضحية والكفاح، في سبيل  
الشرق وخلصه وكرامة الشرق وإعلاء كلمته.

## الثقافة والإنتاج العلمي في فلسطين

بقلم الأستاذ: قدري طوقان - نابلس

نُشِرَت في العدد رقم ٤٩٢ الصادر في السَّابع والعشرين من

تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٣٥ من جريدة الدفاع



"للأستاذ قدري مكانة علمية معروفة. وهو في هذا المقال يتحدث عن ناحية هامة من نواحي حياتنا، ويدعو إلى عمل نافع مفيد".

لا يختلف اثنان في أن الوضع الحاضر في فلسطين شاذ وغير طبيعي وهو غيره في الأقطار الشقيقة المجاورة، فالكل يقاسي آلاماً مبرحة من الاستعمار والمستعمرين، والكل واقع تحت نير الاستعباد والعبودية، ولست واجداً أحداً راضياً عن السياسة المتبعة في بلاده وعمماً يجري حولها، إلا أن هناك فرقاً بين فلسطين وغيرها من البلاد المجاورة، ففي هذه جبروت وطاغية واحد وهنا جبروتان وطاغيتان قد تسلحا بالخبت والمكر والقوة والدها، وعلى هذا فالمصيبة هنا أعظم والبلاء

هنا أعمّ والخطر محقق والفناء يتهدّد والجلاء أكيد  
إذا بقينا على ما نحن عليه.

ومن الطبيعيّ أنّ بلاداً هذا حالها لا تكون صالحة  
للإنتاج العلميّ ولازدهار الثقافة والأدب بالمعنى الواسع،  
ومن الطبيعيّ أن تؤثر هذه الأوضاع على الشباب المثقف  
وغير المثقف، وعلى الأدباء والعلماء فتأخذ قسطاً  
كبيراً من أوقاتهم ومجهوداتهم وتفكيرهم، يصرفونها  
في ميادين السياسة لدرء الأخطار المحدقة؛ وتخفيف  
المصائب المنصبة علينا انصباباً من كلّ جانب، وكيف  
يمكن لثقافة أن تنمو، ولقريحة أن تنتج وتبدع، إذا  
لم تكن تلك القريحة في جوّ من الحرية وفي محيط  
خال من القيود والأغلال ليس فيه من يسخرك لمنافعه  
ومصالحه، وليس فيه من يسعى للقضاء على معنوياتك،  
وعلى قتل الطموح فيك؟

وكيف يمكن لشاب أن يعكف على العلم بقصد،  
والاستزادة والاكتشاف والبحث والاستقصاء إذا لم  
يكن هناك من يساعده ويشجّعه ويأخذ بيده، فكيف

به إذا وجد في محيط كله تشبيط اللهم، وكله إحباط  
للعزائم. وإذا تتبعنا الطرق التي تسير عليها الحكومات  
المستعمرة في مختلف دوائرها، ولاسيما المعارف منها،  
نجد أنها دائماً ترمي إلى القضاء على روح الطمّوح،  
على روح البحث وحب الاستزادة من العلوم والفنون،  
ترمي إلى خلق روح الاعتماد في الناشئة على الغير،  
إلى إماتة الرّوح الوطنيّة وبتّ روح الاستهتار بالتراث  
الإسلامي وانتقاصه بشتى الوسائل.

وفوق ذلك نجدهم "أي المستعمرين" يشغلون أوقات  
النّاس والموظّفين في أمور ليس فيها متاع وليس فيها  
ما يعود على البلاد بخير أو انتفاع. فمن الطّبيعيّ إذن  
هنا وفي البلاد المرزوءة بالاستعمار أنّ الحكومات فيها  
لا تشجّع العلم ولا تحثّ على متابعتة ولا على إيجاد  
رغبة صادقة في التّأليف والبحث رغم حاجة الأمة  
إلى كلّ ذلك. وإذن فلا محلّ لغرابة الكثيرين من موقف  
الحكومة تجاه المؤلّفين وتجاه الذين يلاحقون فروعهم  
في العلم والفنّ، بل الغرابة كلّ الغرابة في حسن أن

هؤلاء الكثيرين بالحكومات المنتدبة، والطلب منها على تشجيع الناس في التّوير والتّقدّم، وقد جهلوا أو تناسوا أنّ هذه الحكومات تسير على برنامج استعماريّ خاصّ من شأنه أن يقضي على كلّ ما من شأنه رفع مستوى الأمة ورقّيها؛ ولهذا وجب على العلماء العرب في هذه البلاد، والشّباب المثقّف العامل أن يلتفتوا إلى هذه النّاحية ويعيروها بعض اهتمامهم وأن يعتمدوا على أنفسهم قبل كلّ شيء، وأن يأخذوا من موقف الحكومات قوى تحفّزهم إلى توسيع الحركة الثّقافيّة في فلسطين وغيرها، ونشر روح البحث والاستقصاء بين المثقّفين، ويقضي الواجب الوطنيّ على الشّباب العامل والأساتذة أن ينحوا في تعليم النّاشئة وتثقيفها ناحية قوميّة وطنيّة، وقد يجدون في هذا صعوبة، وقد يصادفون أمامهم عقبات، ولكن عليهم أن يجاهدوا ويصرفوا بعضاً من وقتهم، وبعضاً من مجهودهم في التّغلب على ذلك، وفي توجيه التّعليم والثّقافة توجيهاً يخلق في النّشء روح الاعتزاز بالقوميّة، وهذا يخلق في النّاشئ شخصيّة وكياناً مستقلاً ورجولة كاملة

مستعدة لتلبية نداء الوطن، قادرة على المساهمة في خدمة الحضارة. ويقضي الواجب الوطني أيضاً على الباحثين أن ينحوا ببحوثهم الناحية القوميّة الوطنيّة وأن يبينوا للنّاشئة فضل العرب الكبير الضّم على المدنيّة، وقد تبوأوا مركزاً سامياً لم يتبوأه غيرهم أيام كانوا سائرين على النهج القويم الذي وضعه الرّسول وصحبه وخلفاؤه، أيام كان الاهتمام باللباب دون القشور.

بهذا وحده يمكن أن تنشئ شباباً مؤمنين عاملين على رفع مستوى البلاد، مثقّفين تثقيفاً قومياً وطنياً يعرفون كيف يخدمون الوطن. وهذا هو أقوى سلاح يمكن أن تمدّ به الأمة النّاهضة ليساعدها على خوض غمار هذه الحياة عالية الرّأس موفورة الكرامة، وعلى نيل ما تبغي من عزّ وسؤدد.

وقد يسرّ القراء الكرام أن يعلموا أنّ هناك مساعيّ جديّة للشروع في عمل مشترك تقوم به جماعات مثقّفة ستأخذ على عاتقها الاشتغال في ناحية خدمة

الأمة عن طريق بعث الثقافة العربيّة الإسلاميّة، عن طريق تشجيع ذوي العقول النيرة، والقرائح الخصبة في توجيه بحوثهم ونتائجهم في العلم والفضن إلى ناحية قوميّة وطنيّة، والأمل وطيد بأن هذه الجماعات سيجد فيها الشعب العربيّ وطنيّة عمليّة ستعود عليه إن شاء الله بفوائد جليلة تأخذ بيده إلى حيث التّقدم والمجد ومعارج القوّة والعظمة.

## رحلة إلى المريخ

بقلم الأستاذ: قدري طوقان - نابلس

نُشِرَتْ فِي الْعَدَدِ الصَّادِرِ فِي الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ نَيْسَانَ / أْبْرِيلِ عَامِ  
١٩٣٤ وَتَمَّتْهَا نُشِرَتْ فِي الْعَدَدِ الصَّادِرِ فِي الْأَوَّلِ مِنْ أَيَّارِ / مَآيُو عَامِ

١٩٣٥ مِنْ جَرِيدَةِ الدِّفَاعِ



أَيْنَ الْفِدَائِيُّ؟ هَلْ مِنْ يَغَامِرُ بِحَيَاتِهِ فِي سَبِيلِ الْاِكْتِشَافِ  
الْعِلْمِيِّ؟ مَنْ يَصْحَبُنِي مِنْكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ فِي رِحْلَةِ إِلَى  
عَالِمٍ لَمْ يَسْبِقْنَا إِلَيْهِ أَحَدٌ، إِلَى عَالِمٍ لَوْ يُوْطَأُ بَعْدَ، حَيْثُ  
الْتِرْعِ وَالْأَقْنِيَّةِ مَمْتَدَّةً مِنَ الْقُطْبِ إِلَى الْقُطْبِ، وَمَبْنِيَّةً  
بِطَرَقِ هَنْدَسِيَّةٍ يَحَارُ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ فِي صَنْعِهَا، وَيَعْجِزُ  
عَنْ تَقْلِيدِهَا، إِلَى عَالِمٍ حَيْثُ الْمَاءُ وَلَا بَحُورٌ، وَالْهَوَاءُ  
وَلَا كَثَافَةٌ هَوَاتِنَا، حَيْثُ الْغَيُومُ نَادِرَةٌ، إِلَى عَالِمٍ حَيْثُ  
يَتَعَاقَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ كَمَا يَتَعَاقَبَانِ هُنَا، إِلَى عَالِمٍ لَا  
يَعِيشُ فِيهِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْوِزْنِ الثَّقِيلِ، وَوَيْلٌ لَأَمْثَالِنَا  
مَنْ أَصْحَابِ الْوِزْنِ الْخَفِيفِ، وَلِزْمِيلَاتِنَا مِنَ الْأَوَانِسِ  
مَنْ يَطْلُبُنِ النَّحَافَةَ بِالْمَالِ وَيَنْفِقُنَ فِي سَبِيلِهَا كُلَّ

رخيص وغال، وهي في رحلتنا هذه لا قيمة لها ولا حياة معها، إلى عالم حيث تكون الحركات عليه أسهل من الحركات هنا، وبشرى للسَّمان، فإنَّهم سيتوفَّقون في حفلات الرِّقص، لما سيكونون عليه من خفة في الحركات والخطرات ممَّا لا سبيل إليه هنا، وبشرى للطيارين فستحلُّ مشكلة كبرى من مشاكل مهنتهم، ألا وهي اعتلاء الطيَّارة بهم رأسًا من غير كبير عناء، وبشرى للسيدات الأوانس فسيكون عمرهنَّ عليه نصف ما هو الآن، إذ سنة المريخ تعدل سنتين من سنيِّنا. وأخيرًا وليس آخرًا، بشرى لنا، فسنخلص من أشياء كثرت حولنا وعلينا، ففي كلِّ يوم نرى على الأرض عدوانا جديدًا، وأنواعًا شتَّى من نوازل الدهر ومصائب الزَّمان وفسادًا في الأخلاق وانحطاطًا في النفوس، فمن ظلم فني إلى إرهاب علميٍّ إلى تفتن في الإفناء إلى خداع متواصل إلى مكر مستمرٍّ، إلى أنانيَّة مفرطة وغرور متناهٍ، إلى كذب هو صدق في ظاهره، وباطل هو حق في لباسه. لنرح أنفسنا من كلِّ ذلك قليلًا من الزَّمن ولنروح عن أنفسنا بعض هذا العناء، ولنحلِّق في هذا الفضاء

الواسع الرّحل، ولنجل في بعض أجزاءه، فقد يكون في ذلك سلوى لأنفسنا ورياضة لأرواحنا، وطمأنينة لقرارة أفئدتنا، إذ تتجلى لنا آيات الله بينات، ويظهر لنا بجلاء آلاء له باهرات، وعظمة لا يدانيها عظمة، وإبداع في الصّنع ليس بعده إبداع.

والآن؛ لناخذ أحكم ولنشرع في إعداد العدة، ولنهيئ الآلة التي ستأخذنا إلى المريخ، ولنجهّزها بما يلزم لها من مختلف الأدوات، سنغادر هذه الأرض في آلة محكمة السد متقنة الصّنع، قد يظن البعض أنها الطيّارة وما هي بالطيّارة، ولا يمكن أن تصلح الطيّارة لذلك؛ لأنّ الفضاء بين الكواكب والنّجوم خالٍ من الهواء، والطيّارة بلا هواء لا تتقدّم ولا تستطيع أن تسير خطوة واحدة، وقد يظنّ آخرون أنها قنبلة مدفع مجهّز داخلها بكلّ ما يلزم لرحلتنا، ولكن ... ما لدينا من البارود وما نعرفه عن المدافع، كل هذا يجعل إطلاق القنبلة في حكم المستحيل.

لنترك الطيّارة ولنعدّ القنبلة ولنستلّ صاروخاً يطلق

بانفجار غازات في مؤخره، ولنجعل أناساً يقذفون هذه السفينة السهمية للفضاء إلى حيث نرتاد الكون الأعظم، ونسير من سيار إلى سيار، وقد تعجبون إذ تعلمون أن هذا الصاروخ يجب أن ينطلق بسرعة (٧) في الثانية! (٧) أميال في الثانية!! أي (٢٥,٢٠٠) ميل في الساعة، وأسرع رصاصة الآن لا تزيد سرعتها على ثلاثي ميل، وأكثر سرعة حصل عليها العلم ميل ونصف ميل في الثانية.

لنفرض أننا استطعنا أن نحصل على سرعة (٨) أميال في الثانية، وهي التي تمكّننا من التغلب على فعل الجاذبية، إذ توصلنا إلى أبعد من حدود الأرض بقليل، ولنفرض أننا استطعنا أن نتغلب على صعوبات جمّة منها الصدمة التي يصاب بها الراكب في أول الرحلة، وهي صدمة ناشئة عن سرعة الصاروخ عند البدء في السير. تصوّر أن طيارة أو سفينة تنتقل فجأة من حالة سكون إلى سرعة قدرها (٧) أميال في الثانية، إن هذا التغير يجعل الراكبين يشعرون بضغط شديد جداً عليهم، فما

في جيوبهم من القروش يُدفن في أجسامهم، ونظاراتهم في عيونهم، وإذا أراد أحدهم حك رأسه فكأنه أراد عمل شيء عظيم، وبلغ جهده في محاولة رفع يده أشده، وقد لا يستطع عمل ذلك، وإذا كنا جالسين على مقعد، فإنه سيندك تحتنا دكاً.

تغلبنا على كل ذلك، وخرجنا من هذا الكابوس العظيم، ومن نطاق الجاذبية الأرضية إلى حيث يزول الضغط والجذب تقريباً، ويصبح وزننا لا شيء، ونصبح وكأننا سيار جديد يدور حول الشمس، ومن أعضاء النظام الشمسي.

وهناك، ونحن في تلك الحالة، أصبحنا كريشتين في مهبّ الريح، فقد هممت أن أرفع نفسي، فإذا أنا أسبح في الفضاء أتقلب فيه كما أشاء، وبينما أنا كذلك، شعرت بأن رفيقي يحادثني، وقد وقف فوق رأسي يخبرني بأنه تعب وأنه في حاجة إلى الراحة، وقد صعق عندما علم أنه نسي أن يحضر معه السرير ولوازمه، ولكنني هدأته وطمأنته وعلقته من تحت كتفيه وعند قدميه

بسيور من جلد، ثمَّ سألته عن حاله، فقال إنَّه نائم على فراش مريح لم يحلم به من قبل. ومن عادة صاحبنا أن يدخُن قبل النَّوم، فأحضرت له سيجارة وكبريتا، وأشعل السَّيجارة ورمى عود الكبريت، فلم يقع، بل سار في خط أفقيِّ فكان عجبه واستغرابه من ذلك عظيمين، ثمَّ أرسلت له فنجان القهوة بالفِضاء، إذ دفعت الفَنجان فسار من نفسه دون أن يقع، ووصله سالماً، وكنت كلِّما هممت بإعطائه شيئاً آتية سابقاً في الفِضاء كأني ملك من الملائكة، وأرجع سابقاً لمحلِّي، فازداد دهشةً وصاح: هل نحن في أرض سحرية؟ ثمَّ سألت عن سبب كلِّ ذلك. فقلنا له إنَّ من يلمَّ إماماً بسيطاً في العلوم الطَّبيعية يعلم أنَّ سبب ذلك خروجنا عن نطاق جاذبية الأرض، إذ لم يعد لنا وللأشياء التي حولنا وزن يُذكر، وهذا ما جعلنا نثبت الأثاث والموائد في سفينتنا بمسامير في الأرض لتلا تطير وتبقى في الهواء.

وهناك أيضاً، ونحن في تلك الحالة، لم نعد نرى للأرض الجمال الذي ترونه أنتم، فلا زرقعة في السَّماء ولا جمال

مع الشمس حين الشروق وحين الغروب، وأين نحن من تلك الألوان الأخاذة التي تدخل في نفس رائبها روعة وبهاء محيطة بالتلال والجبال والخضار والأشجار.

لا شفق هناك ولا سراب، لا سحب ولا ضباب، ترى الشمس على حقيقتها كرة هائلة في سماء شديدة الظلمة حالكة السواد، لها ضوء ساطع، ولونها إلى الزرقة مائل، وقد يعجب بعضكم من ذلك، ولكن لا عجب، فالجو هو الذي يشتت نور الشمس، ويحلل ضوءها، وإليه يرجع الجمال الذي تكون عليه الأرض، وإليه ترجع الألوان المختلفة البديعة.

(٢)

وسأل صاحبنا عن القمر وكان ملحاً في السؤال، فلم نربدأ من الذهاب إليه، وكان لنا ذلك فما كدنا نقرب نحوه حتى رأيناه واضحاً جلياً صافياً، فلا جو حوله يحول دون وضوحه، ولا حب ولا ضباب عليه تحول دون ظهوره صافياً جلياً، ونزلنا وأخذنا معنا لزومنا من الأوكسجين، إذ لا هواء عليه، وأخذنا معنا أودية

تدفع عنا تأثير الحر الشديد والبرد الشديد، وكان السطح الذي نزلنا إليه معرضاً لحرارة الشمس فكانت محرقة حقاً، وكان القیظ عظیماً جداً لا عهد لنا به، فاستعملنا الألبسة الملائمة لذلك، وكانت بذلات تنفخ لهواء مضغوط، وهذه تقي الجسم الحر والبرد. ماذا وجدنا أمامنا؟ وجدنا عالماً هادئاً، قد يطيب للمفكرين، فلا زوابع ولا عواصف تعكر السكينة والهدوء، عالماً مبيتاً لا مدن فيه ولا غابات، لا حقول فيه ولا بحور، عالماً فيه وديان كثيرة يبدو بعضها كالسهول لوسعها، والبعض كالمجاري لضيقها، وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما رأينا البراكين كثيرة فوهاتها كبيرة يسع بعضها مملكة بأسرها. عالماً فيه سلاسل من الجبال طويلة يرتفع بعضها ارتفاعاً عظيماً لم نر مثيلها على أرضنا، ملساء لا أثر للنحت والحفر فيها، ليس فيها كهوف ومغاور، تسلقنا عليها فكنّا من أبطال التسلق سرعة وخفة، وصدف أن زلّت قدماي فهويت من محل عال فلم أصب بأذى، ورأيت نفسي أهوي ببطء وخفة ووصلت السطح سالماً، ولا أنكركم أن زميلي كان هناك (وهناك

فقط!) من أبطال الوثب، فقد استطاع أن يقطع في وثبة واحدة أكثر من عشرة أمتار، وكُنَّا هناك (وهناك فقط) من أبطال لعبة الكريكت، إذ استطعنا أن نرمي الكرة ونرسلها مسافة تفوق ستَّة أضعاف مسافة رميها هنا.

وهناك وفي حالة استغراب ودهش عظيمين، اختلط الأمر على صاحبنا وقال إننا في أرض المعجزات، في أرض السَّحر، ولكن لا معجزات ولا سحر، فكل ذلك آت من ضعف جاذبيَّة القمر، فهي التي تجعل المستحيل هنا (على الأرض) ممكناً هناك (على القمر) وتجعل المعجزة هنا أمراً عادياً هناك، وتجعل بعض الحركات التي لا يستطيع أحد عملها أو القيام بها هنا سهلة باستطاعة من يكون هناك أن يتقنها ويتفنَّن فيها، وبيننا نحن في تلك الحال إذ استولى على صاحبي ضيق نفسي شديد لعظم الحرارة، ولم تزد كثيراً احتياطاتنا، وأصبح لا يطيق صبراً على المشي في الجهة المشمسة من القمر، فأخذته إلى الجانب الظليل فكانت الأمور أسوأ

من قبل، رأينا أنفسنا أننا انتقلنا من جانب شديد الحر إلى جانب برده قارص ولاذع لم نعهده من قبل، درجة حرارته ١٥٠ درجة مئوية تحت الصفر.

أمام ذلك لم نجد وسيلة أحسن من مغادرة القمر وتركه للشعراء والأدباء الذين كانوا (ولا يزالون) يستلهمونه ويعتبرونه وحيًا لهم ومعينًا يستقون منه الخيال والنظم، فقلما خلت قصيدة غزلية من التشبُّه به أو التحدُّث عنه، لا يفارق مخيلتهم، يأخذون من تزايد ونقصانه ومن اكتماله بدرًا ومن أشعته الفضية ميدانًا لنظم الشعر ومسرحًا للخيال، ولا ندري لماذا كل ذلك؟! إنني على يقين من أنهم غير مسرورين الآن من رحلتي هذه، إذ بذلك تكشف الحقائق عن حبيبهم ورفيقهم، ولا أدرك ولم يستطع صاحبي أن يدرك لماذا يتغنون به، أكونه خاليًا من الهواء؟ أم لكون نهاره محرقًا وليله باردًا؟ أم لأشعته المستمدة من الشمس وهي أشعَى أكذب من واد الخضان في اللحمية البيضاء؟ أم لفوهات براكينه المخيفة ووديانه الموحشة؟ أم

لأراضيه القفرة التي لا يتكوّن سطحها إلا من رماد  
البراكين ومقذوفاتها؟

وأخيراً غادرنا القمر ولسان حالنا يقول:

وقد طرفت بالأفاق حتّى

رضيت من الغنيمة بالإياب

قد يظنُّ البعض أن القمر ليس إلاّ جسمًا سماويًا  
يستهوِي النُفوس بمنظره ويملك القلوب بأشعته، ويزيد  
في جمال الأرض والطبيعة، ولكن قد تعجبون إذا قيل  
لكم إنَّ للقمر فوائد غير هذه تتصلّ اتّصالًا وثيقًا بمصالح  
البشر، فلولاها لما تقدّمت المدنيّة الحاضرة، وإذا تلاشى  
من الوجود فمعنى ذلك اضطراب في التجارة وإخلال في  
نظامها. ألا تعلمون أن للقمر أكبر الأثر في إحداث المدّ  
والجزر، وأنّ البواخر لا تستطيع الدُّخول إلى الموانئ  
أو الخروج منها إلاّ بوساطتهما، إذا علمتم كلّ ذلك  
أدركتم الفوائد التي يجنيها البشر من القمر، ويحصل  
مدان وجزران في اليوم، والمدّ هو ارتفاع الماء، والجزر هو  
انخفاضه، ويحدث ذلك من جرّاء الجاذبيّة بين الأرض

والقمر، هذه الجاذبية ليست من القوّة بحيث تجعل دقائق الأرض تتحرّك، ولكنّ ماء البحار يطيعها حسب قوتها، ويتجمّع في البحر من هنا ومن هناك تجاه القمر، ومن هذا وبتأثير الشّمس يحصل المدّ والجزر، وقد يظنّ البعض أيضاً أنّ اقتراب القمر من الأرض ممّا يزيدّها جمالاً وممّا يغمرها بهاءً وسحرًا، وممّا يجعل الإنسان يتمتّع بنوره وبأشعّته الفضيّة أكثر من تمتّعه الحاضر، ولكن إذا كان للأرض ذلك واقترب منها القمر، فالبلاء عظيم، والكارثة كبرى. فعلى فرض أنّه اقترب منّا حتّى أصبح على بعد ستّين ألف من الأميال (أي ربع المسافة الحاضرة) لزيد المدّ والجزر (٦٤) مرّة، وإذا كان ارتفاع المياه عشرة أمتار، فإنّه سيصبح (٦٤٠) مترًا، وستغمر الموانئ والمدن وما يجاورها، وقد يلتقي من جراء ذلك البحران الأبيض والأحمر، ولا ينجو من اليابسة إلاّ القليل كالجبال والرّبوات العالية، وليت الأمر يقف عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه إلى الملاحة، فلا تعود تأمن سلوك البحار ودخول الموانئ.

لقد مثل النشر عبر العصور أداةً للتمدد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قدرة استثنائية على التجدد والتنوع في حركته وتحولاته التقنية، بدءاً من الإيماءة ومروراً بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوئاً مُتعدّد الطبقات، يَقبُضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيرة بفعل الزمن.

إن تمدداً على هذا النحو، يمكنه أن يقلص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحية لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحولات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأت صدفةً، إنها انبثاقنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الواسع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقراء.

وزير الثقافة

عماد عبدالله حمدان



مشروع النشر الرقمي